

(١٨)

الإنتاج «منين»؟

فى هذا الشهر يونيو ١٩٩٢م وهو يقابل ذا الحجة ١٤١٢ أخذنا خمسة أيام إجازة العيد الكبير يضاف إلى ذلك ثلاثة أيام جمعا وأحيانا ٣ أيام خميس أيضا فيكون مجموع أيام الإجازات التى أخذناها فى شهر واحد ثمانية أيام أو ١١ يوما يعنى ربع الشهر أيام بطالة ثم نقول نريد زيادة الإنتاج إزاي؟ إذا كنا نضيق ربع الشهر إجازات رسمية فحتى لو كنا شغالين ومجتهدين فإن الإنتاج لابد أن يكون منخفضا ، ونحن اليوم نعيش فى عالم مجنون بالعمل والإنتاج ويكفى أن تنظر فى المحلات لترى أن أوروبا وأمريكا واليابان تعمل بجنون فالمحلات ملاءى بكل شىء مستورد ، والرجل فى بلاد مثل سويسرا والدينمارك وهولندا والسويد والنرويج يعمل على الأقل ثمانية ساعات فى اليوم وهو يعمل أعمالا متقنة تفتح النفس ورجال الحكومة هناك عندهم إحساس كامل بالواجب والأشياء تخرج من المصنع اليوم وتصدر فى الغد والعملاء ينتظرون خارج الحدود وأموال الدنيا كلها تنصب فى البلد ، كل ذلك من العمل والعمل المنتظم المستمر وأذكر أننى كنت مرة فى ألمانيا وتعرفت على عامل مهندس يعمل فى ورشة أقلام وكنت عضوا فى وفد مصرى من وزارة التربية لنشتري الأقلام.

وهذا المهندس كان من المشرفين على بيع منتجات الشركة وقد كنت أدهش لأن هذا المهندس كان يعمل كل يوم من الثامنة صباحا إلى الخامسة بعد الظهر وكان يحفظ كل شىء فى ذهنه ولا يمكن أن يدع العمل جانبا وينصرف إلى الحديث مع زميل له أو معى ، كان يعمل باستمرار وبالضبط

* نشرت هذه المقالة فى ١٢ يوليو ١٩٩٢م .

وكان أحلامه كلها إنتاج وقد خجلت منه فقد اشترينا من شركته أدوات كتابية بثلاثين مليون دولار من أموالنا المصرية وأعطيناهم إياها وكنت أقول فى نفسى هكذا يكون العمل ، وهكذا تكون الحياة أما نحن فإننا فعلا غلبة ومساكين والإنتاج عندنا كلام والبلد معظم سكانها شحاذون لا يكادون يأكلون شيئا محترما ونحن طول النهار نضحك وتغنى لأننا غلبة ننسى الدنيا بالضحك والهزار وقلت فى نفسى إذا كان الحال هكذا فلماذا نتكلم على الإنتاج إذا كنا نأخذ ربع الشهر إجازات ومعظم الوقت نحن فى المكاتب نضحك ونهزر فمالنا والإنتاج بل مالنا والعمل؟ إننا ناس غير جادين عندنا معاهد ومدارس وكليات فماذا نتعلم فيها؟ ولا شيء كله كلام والشىء الوحيد الجاد الذى نعمله هى الزراعة نعم زراعة القطن والقمح والفول والأذرة والأرز فهذه على الأقل أشياء نأكلها ونحن نزرع البرسيم والشعير لحيواناتنا أما الصناعة فلا حق لنا فى الكلام عنها هنا نلعب ولا يمكن مقارنتنا بالبلاد الصناعية.

وقد ابتكر ناس من المصريين صناعات تكميلية تقوم بها أى نستورد القطع ونركبها آلات فى مصر أو نصنع بعضها فى مصر كويس مش بطال المهم أن نعمل المهم أن ننتج أى شىء أما اللعب أما إجازة ربع الشهر فهذا كلام فارغ وغير ممكن أن نصبح بلدا صناعية بهذه الطريقة. والغريب عندنا أن الذين يعملون ويجهدون هم التلاميذ والطلاب هؤلاء يذاكرون ويعملون الواجبات ويدخلون امتحانات وينجحون أو يسقطون المهم أنهم يعملون فإذا تخرج أولئك الطلاب بعد غلب السنين فى المذاكرة وتوظفوا ودخلوا المكاتب فقد دخلوا عالم الكسل والإهمال واللعب والرغى ، انتهى العمل بالنسبة لهم لأن الدولة ليس لديها نظام يرغم الناس على العمل وفى حياتى ما رأيت إنسانا مصرية يعاقب لإهماله فى العمل والغريب أنهم يقولون عندنا لا يمكن إيقاف المرتب مهما بلغ إهمال الموظف لا يبد من

إعطائه المرتب قد تعاقب عندما يثبت إهماله ولكن مرتبه يعشى لأننا فى الحقيقة ليس لدينا نظام عمل مع أن المصانع التى زناها فى ألمانيا لا يمكن أن يعرف موظف مرتبه إلا إذا صدرت له شهادة من مكتب مراقبة أعلى تقول إنه يعمل بجد وينتج ويستحق المرتب ولا يهتم هناك أن يموت الموظف من الجوع مادام مهملا لأن العمل أساس الحياة أما عندنا فإن الأكل أساس الحياة والحكومة لا بد أن «توكل» الناس ربما كانت الصناعات الخاصة استثناء وصاحب المصنع الخاص يطرد أى موظف لا ينتج وهذا عدل لأن صاحب المصنع لم ينشئه ليطعم الناس وأؤكد لك أنني عندما كنت فى الجامعة كنت أعمل بعد الظهر فى ورشة ميكانيكا لكى أأخذ مرتبا أنفق منه على نفسى وقد سعدت جدا بهذا العمل فى الورشة إلى درجة أنني بعد أن تخرجت كان من الممكن أن أستمر فى العمل فى الورشة وبالفعل عرض على صاحبها ذلك ولكنى من ناحية أخرى كنت قد رتبت عملى الجامعى فسرت فيه وتركت الورشة أسفا.

والحقيقة أن أحدا لا يعرف لذة العمل إلا إذا جربة فإن شر ما يمكن أن يصيب الإنسان هو التعطل وألذ ما يسعدك هو العمل هو الإقدام على العمل وإنفاق يومك فيه وأنا شخصا لا أجد لذة فى الحياة أكبر من العمل فأنا أحقق الآن أصلا قديما هو كتاب «طبقات الأمم» لصاعد بن أحمد القرطبي الأندلسى وهو كتاب صعب مجهود ولكنه عظيم فهذا رجل يكتب تاريخ الإنسانية على أساس المساهمات العلمية فالأمم التى شاركت فى العلوم وخلقت للإنسانية تراثا هى الجديرة بالذكر أما الأمم التى لم تشارك فى العلم مثل الأتراك فى رأيه فقد شاركت فى تاريخ الإنسانية ولكنها ليست قائده ولا تقارن بقدماء المصريين أو اليونان أو الفرس أو الهنود والكتاب صعب جدا فكله أسماء أعلام إما علماء أو أمم ثم إنه حافل بأسماء العلوم والكتب وأنا أعانى من تحقيقه ولكنى أجد فى ذلك لذة كبرى وأنا أعرف أن أهل العلم فى الدنيا ينتظرون له طبعة عربية ولكن هذه الطبعة صعبة

جدا ولهذا فإن أحدا من العرب لم يقدم على نشره إلا الأب اللبناني لويس شيخو وطبعته مع ذلك حافلة بالأخطاء والكتاب كله لا تزيد صفحاته على مائة وثلاثين ورقة ولكن كل سطر فيها مشكلة.

ولعل القارئ لا يعلم أننا نحن المشتغلين بالعلم لا نكاد نحصل على رواتب ذات قيمة ، فنحن فى الغالب لا نحصل إلا على قروش ونحن نعانى فى عيشتنا ولكننا سعداء بالعمل فى حد ذاته وكل الذين يعملون يشاركوننى فى هذا الرأى.

والعمل اليدوى عندنا فى مصر يكسب أكثر من غيره سواء أكان عمل عمال مثل السمكرية أو الكهربائية أو المبلطين أو عمل مهندسين وأطباء فهؤلاء يكسبون الوفا ولكنى أقول لك إن الألوفا ليست هى دافعهم إلى العمل وأنا أعرف أطباء جراحين كثيرين يعملون العملية سواء دفع المريض أو لم يدفع والدكتور إبراهيم بدران أتاه رجل مسكين يعانى من شىء فى معدته وكان هذا المريض قد ذهب إلى طبيب آخر فطلب منه خمسة آلاف جنيه ورفض أن يمسه فأتانى يأخذ رأى فقلت له : اذهب إلى الدكتور إبراهيم بدران والرجل ذهب إلى إبراهيم بدران فكشف عليه ثم قال له : تدخل الآن المستشفى فأنا سأعمل لك العملية وأنت لن تدفع إلا أجر المستشفى وثمن الأدوية وهذا مثال من حب رجل العلم للعمل.

ولكن أمثال إبراهيم بدران عباقرة ونحن يهمنى عامة الناس عباقرة وغير عباقرة والدولة عندنا عندما تنادى بالإنتاج فهى تريد عامة الناس وأنا شخصيا لو كنت رئيس الوزراء للجأت إلى إرغام الناس على العمل والإنتاج لأن الناس عندنا مدلون وهم لا يعملون إلا أقل العمل وأنا عندما اشتغلت بالتدريس وجدت الأولاد لا يعملون فقلت لهم لابد من العمل ومن لا يعمل سيضرب واخترت عددا من الفراشين جعلتهم مساعدين لى وصرت أضرب أى طالب لا يعمل كان الفراشون يعبطونه ونجلده على ظهره بضعة جلدات والأولاد اشتغلوا وآمنوا بالعمل وبعضهم امتنع عن المجىء إلى

المدرسة وقال لأبيه إننا توقفنا عن العمل وأنا ذهبت إلى بيوتهم وقابلت آباءهم وكسبتهم إلى جانبي والآباء شاركوني في ضرب أولادهم الذين لا يعملون والنتيجة أن المدرسة أصبحت ميدانا نشيطا للعمل لأننى أعلم أن المصريين بطبيعتهم مدللون وأنا لا يعجبني الإهمال أو الكسل وقد تعلم الأولاد العمل على يدي وأصبحوا مجتهدين ونجحوا فى مستقبلهم والكثيرون منهم ممن ضربتهم أصبحوا شاكرين لى طوال حياتهم وقد ظلوا شاكرين بعد أن أصبحوا رجالا وأصبحوا بدورهم معلمين لمن أصغر منهم بالعنف والضرب.

ولهذا فإننى أقول: إذا كنا نريد زيادة الإنتاج وزيادة قيمته فإننا لا يمكن أن نحصل على مواطنين عاملين إلا بالقوة والعقاب فى حالة الإهمال وبطبيعة الحال فإن العقاب لا يكون شديدا بل يكون عادلا وهذا هو الذى ينبغى علينا أن نعمله فلا يجوز أبدا أن يكون هناك ثمانية أيام إجازات فى شهر هذا حرام ولا يمكن أن ننهض ببلدنا إذا كانت هذه سياستنا لا بد أن نعلم مواطننا العمل ، لأن العمل أساس الحياة ، لا يجوز أساسا أن تأخذ إجازة ثلاثة أيام فى العيد الصغير وأربعة فى العيد الكبير ، وقد لقيت ناسا يقولون إن الناس فى أوروبا يأخذون إجازة يومين فى الأسبوع - السبت والأحد ، وهذا ممكن ولكن الناس هنا يعملون الأيام الخمسة الباقية من الأسبوع ثمانية ساعات بالضبط فى اليوم من الثامنة أو التاسعة صباحا إلى الرابعة والخامسة بعد الظهر.

وأنا عشت فى أوروبا سنوات ورأيت كيف يعمل الناس ، وعملت معهم ولم أعرف هناك الكسل أو الإهمال وأذكر أننى أخذت حذائى مرة إلى الجزمى لإصلاحه ، فطلب منى أربعة عشر فرنكا سويسريا فقلت له: أليس هذا كثيرا؟ قال: إننى لا يمكن أن أعمل فعلا شريفا بأقل من ذلك ، وقد استوقف انتباهى قوله: فعلا شريفا «وهو يريد فعلا متقنا وقد وافقت

وأعطيته الحذاء فأصلحه وأعادته إلى كأنه جديد ، وقد أعجبت بعمله :
وقلت بارك الله فيكم أيها السويسريون ، إنكم تتقنون العمل ، ولهذا فإن
لكم فى الدنيا مركزا عظيما ، وأنتم أغنى بلاد الدنيا بسبب العمل ،
والعمل عندكم كأنه دين. وقد دخلت مصنعا فإذا الناس جميعا يعملون
ولا يتكلم منهم أحد ، وذكرت أننا نحن فى مصر لا نكف عن الكلام فى
وقت العمل وبالفعل لا تزيد مدة عملنا فى اليوم عن دقائق.

حقا إن إنتاجنا زاد فى الفترة الأخيرة ، وهذه الزيادة نتيجة عمل نفر
مجتهدين من العمال المصريين فى العامل ، أما بقية الناس فهم طول
الوقت فى كلام ورغى وأكل ولعب. وهذا ظلم ، ناس يعملون وينتجون
والباقي يلعبون ، وأنا فى رأى أن نأخذ أولئك المهملين فنضربهم أو
نعاقبهم أى عقاب كما فعلت أنا مع التلاميذ لقد أنقذتهم من الكسل
وعلمتهم الاجتهاد ، وهأنت قد رأيت أن الكثيرين منهم ظلوا يشكرونى
طوال أعمارهم ، وأنا لا أحب مكاتب الحكومة عندنا لأن الموظفين فيها
لا يعملون كما ينبغى بل إن الكثيرين منهم لصوص. وأذكر أننى قرأت فى
الأهرام خبير رجل سرق الملايين من أموال الدولة وقد تعجبت كيف يمكن
أن يسرق رجل هذه الملايين ، وكان من رأى ألا يقتصر العقاب عليه بل
لابد أن ينال كل زملائه ورؤسائه.

ثم نقول إننا نريد زيادة الإنتاج كيف؟ إن الناس عندنا مدللون ونحن
نستطيع أن ندفعهم إلى العمل دفعا. وكان هذا يعمل عندنا فى الماضى ،
ولهذا فإن إنتاجنا فى الماضى كان أكثر وأحسن من إنتاجنا الآن. وأنت إذا
ذهبت إلى الدينمارك أو هولندا أو بلجيكا أو السويد أو النرويج لتتعجب
فهذه بلاد قليلة السكان جدا ، والدينمارك لا يزيد سكانها على ستة
ملايين ولكن الناس هناك يعملون طول النهار ، من الساعة الثامنة صباحا
إلى الخامسة بعد الظهر ، وهم يعملون عملا جيدا ولا يعرفون الرغى فى
وقت العمل. والعمل عندهم منظم جدا ، فالمصنوعات تخرج من المصانع إلى

مراكز التصدير ومراكز التصدير إما أن تكون مدنا صغيرة مؤهلة بكل ما يلزم للتصدير أو موان على البحر تقف فيها السفن والناس تصدر دون أن تتدخل الحكومة فى أعمالهم ، فالناس هناك أمناء ، فهم بعد التصدير يقدمون قوائم بما صدره إلى الحكومة ، وبعد قليل يدفعون للحكومة ضرائب قيمة ما صدره ، والناس هناك معتدون فى كل شىء ، وقد نزلت هناك فى قرية صغيرة. وكنت ألاحظ أننا جميعا ننام حوالى العاشرة، والراديو والتلفزيون ينتهى عملهما فى الحادية عشرة ليلا فالبلد كله مصنع وهو فى غاية النظافة ، والأوتوبيسات هناك تعمل طول النهار بكل نظام ، والمحطات جميلة ومنظمة أو سيارة الأوتوبيس تجىء وتقف نصف دقيقة والناس يركبون أو ينزلون ، والركوب من الباب المجاور للسائق ، والراكب يضع النقود فى صندوق إلى جوار السائق ، وعندما يضع النقود تخرج له التذكرة فيقرأ رقمها ويمضى ويجلس وعندما تجىء محطة نزوله يضع التذكرة فى صندوق قرب الباب الخلفى وينزل. وهذا يستمر طول النهار ، وكل الناس هناك يقرأون والواحد منهم يجلس ثم يفتح كتابا أو مجلة ويقرأ ، ولا أحد يكلم أحدا إلا فى وقت الضرورة. فقارن هذا بما عندنا من كلام الناس وهيصتهم والكومسارى الغلبان ينادى ويطلبه بالأجر والنظام والهدوء طول النهار.

ومن الواضح أننا لا نعمل بما فيه الكفاية وأن إنتاجنا ليس على ما يرام، ومن المعروف أن هناك بلادا قليلة فى مصر يعمل أهلها كما ينبغى ومنها دمياط ، ودمياط مركز صناعى ، ما فى ذلك شك ، وقد عشت فيها سنوات لأن والدى كان موظف حكومة ، والحكومة كانت تنقله كما تشاء أو كان هو رجلا جريئا وقحا فكان يلقي برأيه فى وجوه الناس فتكون النتيجة أنهم يعاقبونه بالنقل إلى بلد بعيد ، ولهذا فقد نقلوه إلى دمياط مرتين وإلى السويس - وفيها ولدت - وإلى أسوان. وكنت سعيدا جدا فى دمياط ، فإن أهل دمياط ناس فيهم جمال ، ونسوانهم حلوين ، حلوين جدا ، وهم أهل نظافة وكنت هناك فى المدرسة الابتدائية ، وكانت إلى

جوار مدرستنا مدرسة بنات ، والبنات كن فى غاية الجمال ، وقد أعجبتنى مرة واحدة منهن فكنت أجلس على صخرة قرب تلك المدرسة وانتظر حتى تمر البنات فأظل أتأملها فتمر بى وعينى فيها ، وأظل أتأملها حتى تختفى عن بصرى ، وقد أحببتها وقلت لواحد من أصحابى إننى سأغامر وأكلمها ! فقال لى : إذن فأنت لن تراها بعد ذلك ، وأنت لو تعرف الدمايطيات إنهن فى غاية الفتنة والأدب. كفاية عليك أن تراها ، فهذه البنات لن ينال أحد منها شيئا إلا زوجها. وأخذت برأيه وظللت أتمتع برؤية البنات حتى نقلنا من دمياط إلى القاهرة.

ودمياط هذه كانت فيها صناعات كاملة وممتازة: صناعات الألبان: الجبن والزبد والقشدة واللبن الزبادى ، وطبعا اللبن نفسه. وكانت فيها صناعة الموبيليا. أجمل أصناف الموبيليا كانت تصنع فى دمياط وكنت أنا أمر بمصنع موبيليا فى حى يسمى الخمس ، بضم الخاء وكنت أتعجب من أصناف الموبيليا وأشكالها وصنعتها. وصناعة الأحذية. كانت دمياط أعظم مصنع للأحذية فى مصر ، ومصانع الأحذية هناك كانت تصنع كل أنواع الأحذية من الصنادل إلى البوت. ونسج الحرير ، فكانت دمياط تصنع أجمل الحرير المصرى وأجمل ملابس الحرير ، زرت مرة مصنع حرير ورأيت صاحب المصنع يعمل وسط العمال بكل اجتهاد ثم سمعت أن هذا المصنع سينقل إلى حلوان فذهبت وقلت لصاحب المصنع : لماذا ستنتقلون إلى حلوان؟ أنتم لن تجدوا بلدا أعظم من دمياط فقال لى : ومن قال لك إننا ننتقل من دمياط برغبتنا نحن؟ إنها الحكومة يا سيدى هى التى أمرت بالنقل. الحكومة تخرب كل شىء فى مصر أن رجال الحكومة مستبدون ، ونحن سعداء هنا ، ولكن ماذا نعمل؟

والغريب أن الدمايطة أنشأوا هذه الصناعات بالذكاء والعمل فإن منطقة دمياط ليست منطقة مسراع للبقر والجاموس ، ولكن الدمايطة يربون الجاموس والبقر والغنم والأعناز ويحصلون على الألبان ودمياط ليست منطقة أخشاب ولكنهم يستوردون الأخشاب من بلاد الشام.

وهم يشترون الجلد من الدقهلية وكفر الشيخ. وهم كذلك يستوردون الحرير ، وينشئون تلك المصانع وأهم من ذلك أن لهم نظاما عظيما للتصدير ، فهؤلاء الناس كانوا يصدرون إلى السعودية والكويت وتركيا ويحصلون على ملايين ، وكنت أنا معجبا بالداميطة جدا ، ولو بيدي ما تركنا دمياط أبدا ، وكان من رأيي أن تحول دمياط إلى شبه جمهورية مستقلة داخل مصر ، فقد كانت فعلا بلدا عظيما ، ولا أدري كيف حالها الآن وقد بلغنى أنها تدهورت وهذا أمر مؤسف وأرجو ألا يكون صحيحا.

المهم أن واجبنا الآن هو تحويل البلد إلى مصنع وهذا بيدنا فننتج كل شيء إنتاجا متقنا وكثيرا ونصدره لأن مصر مركز صناعي عظيم وبلدنا يقع في وسط الدنيا بين ثلاث قارات: أفريقية وآسيا وأوروبا ثم إن الناس عندنا يزدادون زيادة مخربة ، قد حاولنا تحديد السكان ، ومن الممكن أن ننجح في ذلك في يوم من الأيام ولكننا الآن نزداد وعدد سكان مصر بلغ الآن ٥٨ مليون نفس ، وهذه مشكلة لا بد من علاجها ونحن لا نستطيع الاعتماد على النصائح ، فالنصائح لا تحل المشكلة ، لا بد من العمل ، ولا بد من أن يضرب الناس حتى يعملوا ، والضرب للعمل حق للأب على أبنائه وحق الحكومة على الناس ، ونشر العمل والإنتاج في مصر سيغير طبيعة البلد ، كل الناس لا بد أن يعملوا ، وكل ما نصنعه ينبغي أن يكون قابلا للتصدير ولا بد أن تكون هناك موان كثيرة للتصدير لأن مصر لا بد أن تكون من أغنى بلاد الدنيا ، وكما قلت لك لا بد أن نستعمل الضرب أو العنف لأن الناس عندنا مدلون ، ولكنهم قادرون على العمل وعندهم استعداد للتعلم ، والدنيا كلها ستشترى إنتاجنا وثروتنا ستزداد ، ومن العيب أن نعتمد على الديون ، بل سيجيء وقت لا نجد فيه من يقرضنا ونحن الآن مع الأسف خاضعون لأمريكا وجورج بوش يصدر أوامر إلينا ونحن نطيع وهذا عيب بل عار ولا بد أن نصنع ونبيع ونكسب ونرفع سعر الجنيه ، فمن العيب أن يكون الدولار مساويا لثلاثة جنيهات ونصف ، لماذا؟ لا بد من أن يرتفع

سعر الجنيه فإن أصل سعر الجنيه خمسة دولارات تصور الحق أننا مهملون ولا بد أن نغير سياستنا ولا بد أن نستعمل القوة في ذلك ، لا بد أن يقوم نظام حكومتنا على تحويل مصر إلى بلد صناعى تجارى ، وذلك كما قلت لك ممكن. أما تدليل الناس فكلام فارغ ، ولا بد أن يعرف الناس أن العمل والإنتاج أساس الحياة. لا بد أن تصبح مصر دمياطا كبيرة تصنع صناعة متقنة وتصدر لا بد من ذلك ، لا بد.